

## 4

## كونك مسلمة حديثاً - المشكلات والتحديات

﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾  
[العنكبوت: 2].

غالباً ما يكون اعتناق الإسلام تجربة إيجابية، منعشة وحتى مبهجة. كما أظهرت الفصول الماضية، تشعرين بأنك شخص جديد فهم للتو «مغزى الأمر كله». هناك الكثير مما يمكن تعلمه، إذا كنت مثل كثيرين ممن اختبروا الإسلام حديثاً، وتمتلئين شغفاً لمعرفة المزيد والمزيد عن الدين، والإيمان الذي اعتنقته. ويأتي مع هذه المعرفة الجديدة طريقة جديدة في الحياة: صديقات جديدات، ملابس جديدة، أنواع جديدة من التسلية، طموحات جديدة ونظرة جديدة على الحياة. يجد بعضهم هذا الانتقال سلساً تماماً. على أي حال، اعتناق الإسلام بالنسبة لمعظم النساء يتضمن أيضاً مواجهة العديد من التحديات. الأمر شبيه بانقلاب عالمك رأساً إلى عقب، وهو كذلك بطريقة ما. لا تعود الأمور كما كانت في السابق، وهناك مجموعة جديدة من القيم، الأولويات، الولاءات التي قد يكون التأقلم معها مؤلماً.

## قيم العائلة

غالباً ما تكون أكثر الأشياء صعوبة في التعامل معها بوصفك مسلمة حديثاً هي رد فعل العائلة. نادراً ما يكون إيجابياً. مرة، في المرحلة التي

وضعت فيها غطاء الرأس، تكلمت إلى عمّتي حول التغييرات التي أدخلتها على أسلوب حياتي. بحلول ذلك الوقت لم أكن أتناول حينها لحم الخنزير، لم أكن أشرب الكحول أو أخرج إلى النوادي. كنت قد تعودت أيضاً على الصلاة، بطريقتي الخاصة، في غرفة المعيشة المظلمة في الطابق السادس عشر من شقتنا الواقعة في برج سكني كبير. وجدت أن من الضروري التواصل مع الرب (الذي كنت أعتقد أنه الكائن الأسمى) بانتظام، فيما كنت أستكشف جانبي الروحي، جانبي الذي كان، حتى تلك اللحظة، غير مكتمل بتاتاً. بالنسبة لي، كان كافياً أنني بدأت «تنظيف» حياتي. لم أكن أنوي أبداً الالتزام تماماً بأي معتقد، ليس حتى بالإسلام. برغم أن نمط الحياة الذي يعيشه المسلمون كان مقنعاً بالنسبة لي في ذلك الوقت بتشديده على الانضباط الذاتي وإغلاق أبواب الإغواء، إلا أنني لم أفكر في الواقع باعتراق الإسلام رسمياً. كان لدى عمّتي تحفظاتها وكانت متشككة تماماً، لكنها كانت تصغي باهتمام. لكن عندما سمع والدي الإشاعة ضمن العائلة بأنني أصبح أكثر اهتماماً بالإسلام، اتصل بي من الخارج وأستطيع القول: إنه كان منزعجاً. أقيت اللوم على نفسي؛ لأنني ذكرت أي شيء لأي شخص في عائلتي كان ينبغي أن أعرف أن الأنبياء ستعرف طريقها إليه، وإن كان بشكل مختلف عبر جدّتي.

لم يضع والدي أي وقت في السؤال عمّا يجري: «ما هذا الذي سمعته عن اعتناقك الإسلام؟». ضحكت حينها فحسب، وأكدت له أنني لا أريد في الواقع أن أصبح مسلمة، وأنني «أقوم ببعض الأشياء الإسلامية». وكنت أقول الحقيقة. لم أكن أريد أن أصبح مسلمة، برغم أنه كان عليّ الاعتراف بأنها تبدو طريقة «جيدة» جداً وأمنة للعيش. لم يكن والدي يراها على

ذلك النحو. بوصفه ملحدًا يقرّ بذلك بنفسه، أعتقد أنه كان يأمل بأنّي سأنتجّب التورط في أي معتقد ديني. في الواقع، قال: إنه يعتقد أنه عمل على تربيتي بشكل أفضل من ذلك، وأنّي أصبحت شابة مستقلة، حرة ومفعمة بالحياة، لكنني أعمل على إذلال روحي بالخضوع لإله متخيل. لغاية يومنا هذا، أعتقد أنني سمعت دموعاً في صوته وما زال يحزنني التفكير في أمه.

قلت في محاولة لطمأنته: «أبي، ليس الأمر أنني أصبحت من «شهود يهوه» أو شيئاً من هذا القبيل!». غني عن القول إن ذلك لم يطمئنه على الإطلاق. بالنسبة له، لا بد أن تلك كانت مثل صفة على الوجه: كنت أدير ظهري لمستقبل لامع وكل الآمال التي كان يضعها على عاتقي، وأرفض كل ما هو عزيز عليه ولا بد أن ذلك أمه، تماماً كما آمني أن أخيب أمه.

لم يكن رد فعل والدي غير اعتيادي بكل المعايير.

شاطرت باسمين تجربتها معي.

«في البداية، اعتقدت عائلتي أن تلك مجرد دعاية كبيرة. آه، إنها مجرد مرحلة تمر بها، وستكون شيئاً مختلفاً في الأسبوع القادم». ثم كانت: «كيف تجرأت على تغيير دينك؟». ثم كانت التعليقات الماكرة حول التحول إلى امرأة رثة المظهر والشباب، وأن الرب ينظر إلى القلب وليس إلى الملابس. لم أكن أرثدي العباءة [القماش الفضفاض الشبيه بالفستان الذي يتم ارتداؤه فوق الملابس اليومية]. لكنني كنت قد بدأت أرثدي ملابس مريحة حقاً، ملابس فضفاضة... أتذكر شقيقي - الذي أصبح مسلماً أيضاً -

يقول لي: «أمي تقول إنها لا تريد المزيد من المسلمين في المنزل»، لهذا قلت: «حسناً، سأنتقل منه». لقد كنت في التاسعة عشرة.

«قبل اعتناق الدين، كانت حياتي قد بدأت تتغير على أي حال. كنت قد توقفت عن التدخين، توقفت عن الشرب، توقفت عن فاحش القول، توقفت عن كل تلك الأنواع من الأشياء. لهذا كانت حياتي تتخذ مسارةً مختلفاً، ولم أدرك أي مسار تأخذ حتى جاءني الإسلام وفكرت: «هذا ما كان الله يعدّه لي» عزيزة.

في حالتي، بدا أن تحوّلني حدث فجأة دون سابق إنذار. لم يكن أسلوب حياتي الجامعية يسمح لي بإجراء اتصالات منتظمة مع عائلتي بسبب مزيج من قضايا المال والوقت - العيش بوصفي طالبةً وراء البحار في لندن لا يمنحك الكثير من الحرية في ذلك المجال. نتيجة لذلك، لم يكن أفراد عائلتي مطلعين أبداً على المقاربات الفكرية أو التجارب التي قادتنى لاختيار الإسلام بوصفه أسلوب حياة - لم يشاهدوا أبداً التغيير التدريجي، ليس مدهشاً، ربما، في عائلة تضم يهوداً (خالتي وعائلتها)، نصارى (أسلافي الأسكتلنديين)، أتباع ديانة إفريقية تقليدية (عائلتي من الزولو) وملحدين (والدي) ألا يكون الدين المادة المفضلة للحديث. وهكذا، لم يسألني أحد مطلقاً لماذا قرّرت أن أغير حياتي؟ وعمّا أوّمن به آنذاك، وعمّا إن كنت سعيدة. لم يخضع الموضوع للنقاش أبداً. بالطبع، كانت هناك «قضايا» تخضع للنقاش - دور النساء في الإسلام، الحجاب، أفغانستان، فلسطين - لكن ليس الأشياء التي كانت تشكل حافزاً لي، المعتقدات التي كنت قد أعتنقتها. ربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتأقلم عائلتي مع هذه المسلمة التي كانت مختلفة جداً عن الفتاة التي

كانوا يعرفونها. وحتى مع ذلك، استطاعوا بمحبتهم وقبولهم لي تجاوز صدمتهم وهو أجسهم الأولى، وغالباً ما كنت أشعر وقت اعتناقي للإسلام أنني معزولة جداً ولا أحد يفهمني.

تحطم فؤاد والدي عندما أخبرته أخيراً أنها أصبحت مسلمة.

قالت لي: «لم أقل لوالدي أنني أصبحت مسلمة إلا بعد سنة من نطقي الشهادة. برغم أنني لم أكن أرثدي الحجاب، إلا أنني عندما عدت إلى المنزل من الجامعة، عرف والداي أنني مختلفة عمّا اعتادا عليه. سألني والدي يوماً ما: «هل أنت سعيدة؟ ما خطبك؟ لماذا أنت حزينة جداً؟».

قلت: «لا شيء، لست حزينة. أنا بخير».

وقال: «لا، قولي لي. لديك شيء تخبريني إياه، لقد تغير شيء ما».

وهكذا قلت: «أنا مسلمة». وانتابته نوبة غضب عارم. لقد تألم وانزعج كثيراً - لم يستطع تصديقي. لكنني شعرت براحة كبيرة. لم أكن أحب الكذب على والدي - كان ذلك يجعلني أشعر بالسوء. لكنني كنت سعيدة آنذاك. فكّرت، لقد أخبرتهما الآن، وانتهى الأمر. كنت أعرف أنه ينبغي القيام بما ينبغي القيام به. كنت أعرف أنني إذا لم أنطق الشهادة، ولم أصبح مسلمة، فسيكون الأمر أسوأ. كان الأمر لله الأولوية على والدي. حاولت تغيير ذلك لكنني لم أستطع. كان الرب في قلبي منذ كنت صغيرة إذا تم انتزاع ذلك مني، فإن ذلك يعني انتزاع حياتي مني».

أردت أن أعرف كيف استطاعت العيش في المنزل بعد ذلك.

«كان هناك اضطراب في ذلك المنزل، كان الأمر كابوساً. كانا يعرفان أنني أصلي حينها، وكان والدي يجعل الصلاة أمراً صعباً جداً. كنت أحفظ بحجابي في حقيبتني، وقد وجدته والدي ورماه في سلة المهملات، ورمى بها بعيداً».

وخلال ذلك الوقت، عرض والداها بيع ممتلكاتهما والانتقال بعيداً إلى حيث لا يعرفهم أحد؛ حتى تستطيع التخلي عن الإسلام دون أن تفقد ماء وجهها. عرضا عليها المال، الحب، وكل ما أرادته، «لكنني لم أمسسه؛ لأنني كنت أعرف أنه رشوة. لم أكن أستطيع الصلاة، لم أكن أستطيع ممارسة شعائر الإسلام، شعرت بأنني في حالة يرثى لها ولم أكن سعيدة، كان الأمر بأكمله غير مريح إطلاقاً.

«في النهاية، أصبح الوضع سيئاً للغاية، وقلت لأمي: إنني سأغادر المنزل. وقد وافقت. كنت قد حزمت حقائبي واصطحبني شقيقي إلى المحطة، وكان ذلك ما حدث: لقد غادرت. كان يوماً حزيناً جداً. لكن قبل أن أغادر، قال لي والدي: «هل تعتقدين أنك إذا أنجبت أطفالاً فإننا سنقبل بك؟ لا، لن أقبل بك، حتى مع الأطفال، ولن أنسى ذلك أبداً».

كانت ردة فعل والدي وشقيقيتي مختلفة عن والدي. عندما جاءت شقيقيتي الصغرى لرؤيتي لدى عقد زواجي المدني، كانت مندهشة تماماً من التغيير الذي طرأ عليّ، وخاصةً على مظهري. أين كان الحاجبان المنتوفان، التبرج الكامل، تسريحة الشعر الأنيقة والملابس الضيقة التي تعرفها؟ نظرت إلى الأسفل على قدمي وهزت رأسها. كنت أرثدي خفين لا يظهران سوى أصابع القدمين مع جوارب، جوارب بيضاء.

«قالت: «أيش»، وهي كلمة زيمبابوية تدل على عدم التصديق، «لقد حطّمت كل القواعد الآن».

لكنها لم تنتقدني. طرحت أسئلة حول كل شيء، وكنت سعيدة لإجابتها، وآمل، كما يفعل كل معتقي الإسلام، بأن ترى جمال الإسلام وصدقته وتفكر في اعتناقه أيضاً. أعتقد أن أحد أصعب الأشياء التي ينبغي على المسلمين حديثاً تحمّلها هو اللامبالاة، الازدراء أو حتى كراهية عائلاتهم للدين. أصبح المنزل ساحة معركة يمكن أن يتعرض فيه الولاء لاختبار قاسٍ.

أعتقد أن والدتي كانت، أكثر من أي شخص آخر، سعيدة؛ لأنني «وجدت الرب». بعد عودتها إلى الكنيسة بنفسها، أعتقد أنها كانت مرتاحة؛ لأنه برغم نشأتنا في بيئة الحادية، إلا أنني تعرّفت على مولاي وكنت أعيش حياتي لأعبده. كانت تفهم، أكثر من أي فرد آخر في العائلة، البعد الروحي لاعتناقي الإسلام.

لكن لا تسلم حتى النساء من خلفيات إسلامية من ضغوط العائلة. لم يكن جيلي من الأخوات اللواتي عُدن إلى دين ولادتهن يردن ممارسة الإسلام وفقاً للتقاليد، والثقافة أو توقعات المجتمع، وإنما أردن الإسلام النقي، الإسلام الحقيقي، إسلاماً خالياً من التأثيرات الثقافية والبدع. كنت أتفاجأ دائماً، بوصفي شخصاً نشأ على احترام ثقافته الإفريقية كثيراً، عندما أجد آسيويات مسلمات، باكستانيات وبنغاليات، يسخرن من ثقافتهن. لكنني فهمت لاحقاً أنه عندما يتم، غالباً، خلط الثقافة بالدين وتغليبها بالحماسة الدينية فإن ذلك يقود إلى مثل تلك البدع مثل زواج

الإكراه، قتل الشرف وختان البنات التي تُنسب كلها على غير وجه حقاً، غالباً، إن لم يكن دائماً، إلى الإسلام.

عندما كنت في الثانية عشرة، كان هناك الكثير من الصعاب؛ لأنه لم يكن يوجد، في ذلك الوقت، الكثير من المسلمين الملتزمين. لهذا [عندما بدأنا نلتزم الإسلام النقي] أثرنا بشكل أساسي استغراب المجتمع، والعائلة، والأقرباء والأصدقاء، الجميع فيما يخص الدين. بالنسبة لهم، كان ذلك ديناً جديداً اكتشفناه» بيغوم.

بالفعل، في العديد من المجتمعات، لا يكون الحد الفاصل بين الثقافة التقليدية والإسلام واضحاً أبداً. يؤدي ذلك إلى نشوء قواعد ثقافية غالباً ما تكون لصالح جنس، طبقة اجتماعية أو مجموعة اقتصادية واحدة، والتي يتم الحفاظ عليها وتعزيزها على حساب المبادئ الإسلامية الحقيقية عادة. لن أنسى أبداً الدعوة التي تم توجيهها لي لتحضير حنة العرس لشابة بنغالية شمال لندن. في الثقافة البنغالية، ليلة ميهندي (الحنة) مناسبة كبيرة لكل العائلة، ذكوراً وإناثاً، الذين يجتمعون لتناول الطعام، والمشاركة في النشاط الاجتماعي وتحية العروس. وضع الحنة نفسها جزء ثانوي للغاية من الأمر كله، كما اكتشفت لاحقاً كانت العروس متوترة للغاية، تضحك أحياناً بشكل مبالغ فيه مع شقيقاتها وصديقاتها، وتحزن وتتجهم أو تكاد تذرف الدموع في أحيان أخرى. فعلنا أفضل ما بوسعنا لتهديئة أعصابها فيما كانت تحاول جعل ثوب الساري الأحمر المتقن الصنع يستر بطنها؛ لأن «أمي ستثير مشكلة». تخيلوا رعبني عندما اكتشفت أنها مخطوبة لابن أفضل أصدقاء والدها الراحل، وهو شاب لا تعرفه ولا ترغب الزواج منه. لم أستطع أن أتخيل ما ستكون عليه الحال

في ليلة زفافها، وحيدة مع رجل لا تريده، وقد لا تميل إليه، وتتوق ربما إلى شخص تحبه لكنها لا تستطيع الزواج منه. لم تكن حقيقة أن زواجها مدبر بتلك الطريقة هي ما أزعجني. مثل معظم أخواتي، كان زواجي «مدبراً» (المزيد عن ذلك لاحقاً). لكن ما أزعجني كان حقيقة أنه تم تجريد هذه الشابة من كل الحقوق التي تتمتع بها بموجب الإسلام وإخضاعها لمطالب الثقافة البنغالية: حق رؤية ولقاء طالب يدها، رفضه إذا لم يرق لها عاطفياً وجسدياً وحق قبوله أو رفضه دونما سبب على الإطلاق... كاد ذلك يحطم قلبي. لكن ماذا كنت أتوقع؟ برغم أنها ولدت ونشأت مثل المسلمين، إلا أن عائلتها لم تكن تلتزم حقاً بتعاليم الإيمان، ولم تستطع سوى إبداء الإعجاب بالطريقة التي نتعامل بها ومساعدتي اليافعة في تحضير الحنّة، شادية، مع بعضنا بود واحترام، وكيف نتبادل دائماً تحية السلام (السلام عليكم)، وكيف نذكر دائماً لفظ الجلالة الله، والطريقة التي نستبرها أنفسنا وأخلاقنا بشكل عام.

بلورت تلك الأمسية، التي انتهت باستدعاء الشرطة للتعامل مع مشكلة تسبب بها شقيق «أصغر» كان يسيء معاملة والدته وشقيقته، رفضي للتعامل مع الثقافة التقليدية على أنها شيء لا يمكن انتهاكه. لسوء الحظ، حتى في الغرب، الحقيقة المرة أن أولئك الذين يرفضون مثل تلك المعتقدات الثقافية أو يدعون إلى تعديلها وتغييرها - في حالات متطرفة - يدفون حياتهم ثمناً لذلك.

### أسلوب حياة مختلف

اعتناق الإسلام في مرحلة الشباب يعني غالباً أن تصبحي منبوذة اجتماعياً، خاصة إذا كنت تحاولين فعلاً العيش وفقاً لقانون الإسلام،

الشريعة. إنه يعني أن «تأهبي للغاية» عندما تستعد صديقاتك غير المسلمات للذهاب إلى حفلة، حانة أو نادي. ويشكّل حتى المكان الذي يبدو هادئاً مثل المطعم تحديات لا يمكن تذليلها تقريباً. هل سيكون الرجال والنساء معاً هناك؟ هل يقدمون الكحول؟ هل سيكون اللحم حلالاً؟ هل ستكون الموسيقى صادحة، وهل سيرغب الجميع في الرقص؟ هل سأشعر بالغرابة؛ لأنني أردي الحجاب؟ هل سأعرض ديني للخطر؟ هذه هي الأسئلة التي تسيطر على أي مناسبة اجتماعية، خصوصاً في حضور عائلة وأصدقاء غير مسلمين.

أتذكر مرة أنني رافقت زميلتي في السكن عفوة إلى منزل أقاربها للاحتفاء بمولودها الجديد، وأنتي شعرت بالإحراج والانزعاج. كان ذلك بعد الظهر وقت صلاة العصر. وجدت لنفسني زاوية صغيرة في الجانب الآخر من المنزل المكتظ بالناس لمد سجادتي والصلاة. لكن، فيما كنت أهم بالركوع، شعرت بجسد يمر بجانبني وتسمّرت في مكاني. انتابني القلق من وجود شخص يقف على الدرج خلفي واحمرّ وجهي خجلاً. لم أستطع التركيز على صلاتي بعد ذلك. اكتشفت أيضاً أن الجميع ينظرون إلي كما لو أنني جئت للتو من كوكب آخر؛ لأنني كنت أردي الحجاب. كنت الغريبة بينهم، التي لم تتسجم مع الباقيين والتي كانت مختلفة.

«لاحظت أن الناس كانوا يبتعدون عني؛ لأنني لم أكن أتكلم مثلهم، ولم أكن أهتم بما يفعلونه، لأنني لم أكن مثلهم. لأنني كنت أحاول الالتزام بالدين، وكنت مملة بالنسبة لهم» صادقة.

في النهاية، أصبح الخروج مع صديقاتي غير المسلمات أمراً نادر الحدوث وبدأت أقضي المزيد والمزيد من الوقت في «مطبخ ساندرا»، مع

مسلمات كن، مثلي، إما قد اعتنقن الإيمان أو «عدن» إليه. أثار ذلك، بحد ذاته، نزاعات خاصة؛ لأن صديقاتي القديمات اعتقدن أنني كنت أنغير، وأبتعد عنهن. لكن ماذا عساي أفعل؟ كنت أريد الانغماس في هذا الإيمان الجديد الذي كان ينكشف أمام ناظري. كان هناك الكثير من الموضوعات التي ينبغي مناقشتها، الأسئلة التي ينبغي طرحها، الكثير من المواقف التي ينبغي إعادة النظر فيها وكنت مشغولة للغاية بكل ذلك.

عندما اعتنقت الدين، لم تكن ممارسة شعائره قراراً واعياً. كان الأمر كما لو أنني استيقظت يوماً ما وقد تغير قلبي، لم أكن أبحث عن أي شيء، لكن الله كان قد اختار أن يهديني. ولأن الأمر حدث بسرعة كبيرة، كنت وحيدة تماماً؛ لأنه كان عليّ الانقطاع عن الجميع. كانت عائلتي قد تخلت عني، عاطفياً ومادياً، وكانت كل صديقاتي غير مسلمات. شعرت كما لو أنني ولدت من جديد، لكن كان عليّ البدء بكل شيء من العدم: إيجاد مجتمع جديد، العثور على صديقات جديدات، ملابس جديدة ... وكنت وحيدة للغاية. لم يكن لدي أحد، لم يكن لدي شيء، وما كان يجعلني أتماسك هو الله، لا شيء سواه» غانية.

كان على سارة الاختيار بين الالتزام بتعاليم دينها والمشاركة في مسابقات كرة السلة، وهو النشاط الذي كانت تحبه حباً جماً.

قالت لي: «كانت الرياضة أحد الأشياء التي لم أكن أتخيل التخلي عنها. لقد مارست كرة السلة منذ كنت في الرابعة عشرة ولطالما كانت جزءاً كبيراً من حياتي فهي تجعل لياقتي عالية وتريحني من التوترات.

لقد أحببت الجانب الاجتماعي فيها أيضاً. لم أكن أتخيل محو ذلك الجزء من حياتي. لكن، الحمد لله، تلاشى ذلك الشغف، وحل مكانه بطريقة ما الشغف بالمشي في المنتزهات، والحقول وأي مكان.

«وفيما كنت أصبح روحياً أكثر إدراكاً، بدأت أقدر كل شيء: المطر، السماء، الأشجار، كل أنواع الطلال المختلفة، كل الأشياء التي وهبنا إياها الله».

إضافة إلى الجانب الاجتماعي، ليس غريباً على صديقات من اعتنقن الإسلام أن يكون لديهن هواجس أخرى أيضاً. بالمحصلة، كن قد اخترن الحلو والمر معاً، اشتركن في تسريجات الشعر نفسها، والقيام بأعمال طائشة ووضع تبرج متكلف. إنها الفتاة التي نامت في منزلهن، وتسلمن معها خارجه، وكذبن على أهلهن للتغطية على أفعالها، ورافقنها إلى النوادي الليلية حيث رقصن حتى آخر الليل، وارتدين معها أحذية عالية الكعب كن قد اقترضنها. إنها مسلمة، إنها تستر نفسها، إنها لا تشرب، لا تلفظ فاحش القول، وليست مهتمة بالرجال، هل يمكن أن تكون قد تغيرت إلى ذلك الحد؟ وما هو، أو ما الذي، قد تغيرت إليه؟

بعد أن بدأت أستر نفسي، قضيت بعض الوقت مع صديقة في الرياضة من الجوار. كنا نتبادل أطراف الحديث عندما قالت فجأة: «أنتِ كما كنتِ! تقولين الدعابات نفسها وكل شيء!» كانت مندهشة حقاً» سارة.

كونكِ خائفةً، أو حتى تتخيلين، ازدرأ صديقاتك لك أمر مخزٍ. لكن كيف تقنعين صديقة قديمة لكِ بروعة طريقتك الجديدة وجمالها في العيش

عندما تنظر إليك بشفقة وربما تفكر، فتاة مسكينة، انظرن إليها. لماذا كان عليها فعل ذلك وخسارة نفسها بتلك الطريقة؟

«شعرت بالإحباط فعلاً بشأن ذلك، خاصةً عندما كنت أشاهد أشخاصاً من المنطقة التي نشأت بها. كانوا ينظرون إلي من أعلى رأسي إلى أخص قدمي ويقولون: «ماذا، أنت؟ أصبحت مسلمة، أنت؟» زبيدة.

لن أنسى أبداً الإحراج الذي شعرت به عندما التقيت صديقة قديمة من المدرسة في صبيحة يوم مشمس في محطة شرق لندن لقطار الأنفاق. كنت أنا وإياها صديقتي حفلات في المدرسة، ولم أكن قد رأيتها منذ سنتنا الجامعية الأولى. بالنسبة لها، كانت رؤيتها لي للمرة الأولى منذ سنوات أضع حجاباً أسود وأرتدي عباءة مع وجهي الخالي من التبرج الكثيف، والتعب باد على وجهي من النهوض باكراً، شيئاً أكثر مما يمكنني تحمّله. لم أكن أريد لذلك أن يصل إلى «برق الأدغال» وأن يسمع أصدقائي القدامى في زيمبابوي كيف أصبحت حالتي مزرية أفقر للأناقة ومختلفة جداً عن الفتاة التي كانوا يعرفونها. كان يمكن أن يكون ذلك نابعاً من شعوري الخاص بعدم الأمان، لكني كرهت لقاء أي شخص من الجاهلية لوقت طويل بعد ذلك. وبرغم أنك تعرفين أن ما تقومين به هو الصواب وما تؤمنين به هو الحق، إلا أن الشعور بأنني موضع ازدراء وسخرية كان لاذعاً بشكل لا مثيل له. لم يكن هناك طريقة أستطيع من خلالها الوصول إلى كل الذين يعرفونني وأن أشرح لهم كيف أو لماذا شعرت بأنني أحب اعتناق الإسلام، لهذا تراجعت بشكل ما. شعرت بأقصى درجات الراحة عندما كنت أوجد حول أولئك الذين لا يحتاجون إلى تفسيرات - أو تبريرات.

أخبرتني كليز كيف انسحبت تدريجياً من صديقاتها، خائفة من انتقاداتهن وغير واثقة من قدرتها على الارتقاء إلى مستوى شهادتها.

قالت: «لم أتكلم حقاً مع صديقاتي عن المكان الذي كنت أجيء منه. يعود سبب ذلك جزئياً إلى أنني كنت أعرف أنهن سيعتقدن أنني أصبحت مسلمة بسبب غاريث، لأنه كان الشخص الذي يخبرني عن الإسلام. كان صعباً بما يكفي بالنسبة لي أن أتكلم عن ذلك دون أن أشرح للآخرين أنه، نعم، يعود ذلك في جزء منه له، لكنه لم ولن يكون أبداً بسببه وحده. كنت خائفة من رأيهن بي، وكنت خائفة من تثبيت ذلك الخلاف مع الجميع، تحسباً فقط من عدم وصولي إلى المستوى المنشود بنفسي. شككت بقدرتي على اعتناق أشياء معينة. أصبحت بعيدة تماماً عن كل صديقاتي. لم أخبرهن حقاً الكثير عن الأمر؛ لأنني شعرت بأن ذلك هو السبيل الذي أريد سلوكه. لم أفكر حقاً أنني أستطيع القيام بذلك بأي طريقة أخرى».

مجال آخر للنزاع بالنسبة لي والعديد من الأخوات اللواتي تكلمت معهن كان «الاختلاط»، وهو التعبير الذي غالباً ما يستعمله المسلمون لوصف الوضع الذي يختلط فيه رجال ونساء، ليسوا محارم، اجتماعياً. ضمن وحدة العائلة، العلاقات مباحة بين الرجال والنساء الذين يكونون إما متزوجين أو بينهم صلوات قربي ولا يستطيعون الزواج. تلك العلاقات موضحة في القرآن في سورة النساء:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُم

اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ  
أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ  
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [النساء: 23].

على العكس، هذا يعني أن المرأة المسلمة ليست ملزمة بارتداء اللباس الشرعي أو وضع الحجاب بحضور والدها، وأبنائها، وأشقائها، وأعمامها وأخوالها... إلخ. يمكنها ارتداء ملابسها العادية، وضع التبرج والعطور والدخول في أحاديث ودية مع هؤلاء الرجال الذين يدعون المحارم.

على أي حال، العلاقات بين الرجال والنساء غير المحارم محكومة بشريعة أخلاقية تتضمن وضع الحجاب، وغيض البصر (لكل من الرجال والنساء، برغم أن الرجال مطالبون بها أولاً في القرآن)، عدم خلوة رجل وامرأة معاً وحدهما، الامتناع عن أي تماس جسدي والتصرف عامةً بأسلوب حضاري محترم عندما يكون هناك تواصل. في حياتنا، يحدث هذا غالباً في سياق التعاملات التجارية، والدراسة والتسوق من ضمن أشياء أخرى. على أي حال، نبذل جهوداً كبيرة لإبقاء هذا التواصل في أدنى درجاته. يجد الكثير من غير المسلمين وحتى بعض المسلمين فكرة الفصل بين الجنسين غير طبيعية ولا يستطيعون فهمها.

عند هذه النقطة، ربما يكون مفيداً أن نتذكر أننا، بوصفنا مسلمات، نعيش وفقاً لشريعة أخلاقية مختلفة عن المجتمع الذي نحيا فيه. إنها الأخلاقيات المذكورة في القرآن التي يتعامل جزء منها مع مسألة خطيرة هي الزنا. بالنسبة للمسلمين الملتزمين، يعدّ هذا شيئاً شائئاً بشكل فظيع وينبغي تفاديه مهما كلف الأمر.

أريد منكم الآن تخيل هذا السيناريو: مجموعة من الأصدقاء، رجال ونساء، يخرجون في ليلة ما معاً. ترتدي النساء ملابس مثيرة، وينتعلن أحذيتهن المخصصة للرقص. يتم تقديم الكحول ويتباهى كل الرجال بشرب كميات كبيرة منه، متلهفين لترك انطباع جيد. عندما يلتقون، يتم تبادل المعانقات والقُبَل. ربما يدوم عناق بين صديقين أكثر مما هو معتاد بقليل هل هي نعومة شعرها أم العطر الذي يضعه؟ لكن ذلك لا يعني شيئاً؛ لأنهم مجرد أصدقاء. إضافة إلى ذلك، كلاهما متزوج منذ مدة طويلة ويحب ويحترم شريكه كثيراً. ينعش المزاح اللطيف مزاج الجميع ويكون هناك انجذاب بينهم. تقوم إحدى النساء، المفعمة بالحياة والطرف، بما يمليه عليها الرجال الآخرون. يحب الرجال ذلك، خاصةً صديقها الصالح، إنه يحب أن يتبادل معها أطراف الحديث فحسب؛ إنها تمثل تحدياً كبيراً بالنسبة له، بخلاف شريكته التي لا تبدو مثيرة للاهتمام مقارنة بها. يبقى أخيراً كلاهما، يتناقشان وحدهما.

يراقب كل شخص آخر حديثهما فيما الشرر يتطاير. تغوص صديقته في مقعدها، محرجة وخجلة؛ لأنها لم تستطع لفت انتباهه بتلك الطريقة. يشعر صديقها بعدم كفاءته، لم تظهر تلك الشرارة في عينيها أبداً عندما كانا يتبادلان أطراف الحديث. وهكذا تستمر الأمسية، الجميع يرقص مع الجميع، وتعصف الكحول بالعقول وتسيطر الغرائز. ما الذي سيحدث في نهاية الأمسية؟ هل ستبكي صديقته في السيارة في طريق العودة إلى المنزل غاضبة؛ لأنه تجاهلها من أجل امرأة أخرى، لا حول لها في مواجهة إنكاره للامرأة؟ هل سيدعوها صديقها «الغانية الصغيرة» ويضعها على وجهها غاضباً منها؛ لأنها جعلته يبدو أضحوكة؟ أو ربما لن يحدث شيء، لا شيء غير اعتيادي. ربما ستكون مجرد أمسية عادية. أو ربما لا تكون.

هذا مجرد سيناريو واحد، وقد يبدو للكثيرين أنه ليس أكثر من تفاعل طبيعي ودي بين الجنسين. على أي حال، في أحيان كثيرة، يتم زرع بذور الشهوة حيث يوجد رجال ونساء. تموت بعض البذور قبل أن ينتج عنها جذور، وينتج عن أخرى براعم قبل أن تختفي أيضاً؛ وتتمو أخرى إلى أزهار كاملة.

تعرف وسائل الإعلام هذا الأمر جيداً أيضاً. في عدد لا يحصى من الأفلام، والروايات، والأغانى والقصائد، يتم استكشاف واستغلال موضوع الزنا. أعتقد أنه سيكون عادلاً القول: إن لغة الزنا وصورته جزء من مجتمعنا، سواء أحببنا ذلك أم لا، ووسائل الإعلام واسعة الانتشار لا تدينها ولا تحذر منها أيضاً. بدلاً من ذلك، تتباهى بالفعل والأشخاص الذين يقعون فيه: رجل السيدات، محطم القلوب، دون جوان، مغوي النساء، من هم بالمحصلة سوى سلسلة من الزنا، لأكون فضلة؟ حقيقة أنه لا يوجد ذلك العدد من تعبيرات الإعجاب الخاصة بالنساء اللواتي يقمن علاقات جنسية مع شركاء متعددين تدل على الطريقة التي يعمل بها مجتمعنا، حتى في هذه الحقبة من المساواة بين الجنسين.

على أي حال، بالنسبة للمسلمين، لا يحظى الزنا بصورة زاهية على الإطلاق: إنه من الكبائر وينبغي تفادي أو تقييد أي شيء ربما يقود إليه، وهذا يتضمن «الاختلاط».

لكن كيف يمكن لمسلمة حديثاً، كانت تختلط بالجنس الآخر طيلة حياتها، أن تتأقلم مع هذا الانفصال عن حبيبها القديم وأصدقائها الذكور؟ مسألة «الاختلاط» لم تكن صعبة بوجه خاص بالنسبة لي، ليس لأنه لم يكن هناك

شباب مقربون لي، لكن لأنني أقدر السبب الكامن وراء ذلك. كنت قد رأيت بنفسني عواقب تلك البيئات المختلطة، وشهدت الألم الذي مرّت به صديقة نتيجة خيانة أفضل أصدقائها، والاضطراب الذي تسببه بيانات الحب الأفلاطونية المفاجئة غير المرحب بها من قبل الأصدقاء. لهذا كنت أقدر سلامة البقاء بعيداً عن تلك الأوضاع مجتمعة.

على أي حال، لم تجد أي امرأة أخرى الأمر بتلك السهولة.

قالت لي ياسمين: «كان الأمر صعباً؛ لأن معظم أصدقائي كانوا ذكوراً. بدأت بعد مدة من الوقت أبتعد عنهم وكانوا ما زالوا يحاولون التشبث بي، وكان ذلك صعباً مع أولئك الذين كانوا مقربين لي. مع الصديقات، كنت سعيدة للتخلص منهم!».

وجدت سعاد، المولودة لعائلة صومالية مسلمة، الالتزام صعباً جداً فيما يخص الاختلاط وضغوط العائلة. عبرت عن ذلك أمامي عندما قالت: «كان صعباً القول لكل أصدقائي الشباب المسلمين: «آه، لا يمكنني التحدث معكم بعد الآن، هذا حرام، لا يمكنني القيام بذلك». وانقطعت عن الجميع، ذكوراً وإناثاً، أي شخص كنت أعتقد أنه سيؤثر علي بالتأكيد. لم أتكلم معهم هاتقياً بعد ذلك، وانقطعت تماماً عنهم. لكنني لم أستطع الانقطاع عن شقيقتي، الشقيقة التي عاشت في المنزل نفسه مثلي، والتي كانت تقول باستمرار: «أنت متشددة للغاية. لا أفهم سبب قيامك بذلك». كنت أستطيع صد أولئك الذين لم يكونوا من العائلة، لكن عندما تكون شقيقتك وأبناء عمومك الذين يكونون في حالتك مثل الصقور، لا يمكنك الابتعاد عنهم قيد أنملة».

كان على أخوات أخريات التعامل مع أحباب أو شركاء غير مسلمين عندما دخلن في الدين. كان بعضهم أحبباً من المدرسة الثانوية، وبقي آخرون متزوجين لسنوات عديدة، لكن اعتناق الإسلام كان يعني اتخاذ قرارات بالغة الصعوبة. لا تستطيع النساء المسلمات الزواج سوى من رجال مسلمين كما يقول القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهَا جَرَّاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلَّمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: 10].

لأنهن لم يرغبن «بالعيش في الخطيئة»، كان هذا الحكم يعني أن على النساء الاختيار بين شركائهن وإسلامهن، كان ذلك خياراً بسيطاً برغم صعوبته: ينبغي أن يحل الدين أولاً.

ربما يبدو هذا خياراً مستحيلاً، خاصةً إذا كانت العلاقة موضع البحث جيدة. لكن هناك طريقة لفهمها: تخيلي أن تكوني مدمنة على الكحول أو لفائف التبغ، وقررت الإقلاع عن ذلك. من ناحية أخرى، يشرب شريكك كثيراً أو يدخن بشراهة. هل تستطيعين تخيل صعوبة أن تتأى بنفسك عن أسلوب حياة ما زال يتدفق في عروقك، وما زال يناديك ويتشبث بك؟ فيما الشخص الذي تحببته وتعيشين معه ما زال يعيش وفقاً لأسلوب الحياة ذاك وكل ذلك يحدث فيها، سيكون شبه مستحيل عليك الإقلاع عن ذلك والمحافظة على علاقتك في الوقت نفسه. هذا ما يحدث مع الإسلام. كونك مسلمة حديثاً، ترغبين بأن تعيشي الحياة الإسلامية، من اللحظة التي تستيقظين بها لتصلي الفجر إلى اللحظة التي تذهبين فيها إلى السرير

في الليل. لكن وجود شريك غير مسلم يعني مواجعتك لأسلوب حياتك القديم يومياً وتعرضك لكل اختباراتهِ وتجاربه، فتنه، مثل اللغة السيئة، الاختلاط، تناول الشراب، تعاطي الممنوعات أو حتى شم رائحة شطيرة لحم الخنزير. لهذا، في مواجهة هذا التناقض الصارخ، تنفصل الكثير من النساء عن شركائهن. سألت أم صفوان كيف استطاعت أن تتحمل عدم رؤية حبيبها الذي رافقته طيلة خمس سنوات.

كان جوابها: «منحني الله القوة، هذا كل ما يمكنني قوله! شعرت بأني لا أستطيع الوجود مع كافر بعد ذلك. كان الأمر كما لو أنني أتساءل: ما الفائدة من دخولي الدين؟ ربما أستمر في القيام بما كنت أقوم به من قبل والتفكير بأني مسلمة، أضحك على نفسي فحسب». في حالتها، كان لدى حبيبها فضول كبير بشأن دينها الذي سرق، في الواقع، حبيبته منه، ولهذا ذهب إلى المسجد لاكتشاف ماهية الأمر كله. أصبح لاحقاً مسلماً أيضاً، وكذلك شقيقته ووالدته، وهو متزوج الآن من أم صفوان ولديهما أربعة أطفال.

### مظهر جديد

اقتباساً من الأخوات اللواتي تمت مقابلتهن من أجل هذا الكتاب وبناءً على تجربتي الخاصة، يبقى الحجاب، دون شك، أحد أصعب مظاهر الإسلام للمسلمة حديثاً. إنه يستلزم التدقيق في أشياء كثيرة جداً: الطريقة التي ترين بها نفسك، الطريقة التي يراك بها الآخرون وكيف يعاملونك نتيجةً لذلك. بالنسبة لبعضهم بمن فيهن أنا، كان الحجاب شيئاً جاء بشكل طبيعي للغاية، برغم أنني بدأت بوضع وشاحٍ للرأس ومضيت في

طريقي حتى غطّيت نفسي بشكل كامل. كانت أخريات يعوّدن أنفسهن في البداية بارتداء قبعة، منديل كبير أو، كما في حالة حليلة، شبكة للشعر: «كان الفصل شتاءً وبدأت أضع شبكة للشعر، هل تتذكرن الشبكة؟ لكنني فكّرت بعدها، لا بأس، يصبح الجو أكثر دفئاً الآن، لا يمكنني وضع الشبكة طيلة الوقت! وهكذا ابتعت وشاحاً من كوفينت غاردن وبدأت ألقه حول رأسي... وبقيت على تلك الحال وقتاً طويلاً. ثم وصلت إلى مرحلة قلت فيها، لا بأس، يمكنني القيام بذلك الآن».

كان لياسمين تجربتها الخاصة في تغطية نفسها: «كانت تغطية رأسي تمثل تحدياً بالنسبة لي. تغطية الجسد مهلاً، ليس أمراً مهماً. تغطية الشعر ياه! اعتدت دفع مبلغ كبير لتصفيف شعري! عندها، كان 40 جنيهاً مبلغاً كبيراً لعمل تسريحة لشعرك وتصفيفه وكنت أدفع ذلك المبلغ، وكنت أريد أن يشاهد الناس ذلك الشعر! استغرق بي الأمر نحو ستة شهور لاعتماد القبعة. لهذا انتقلت من القبعة إلى الحجاب».

هناك مقدار معين من تجنّب الظهور الذي ينبغي أن يحدث عند وضع الحجاب. الإسلام دين السلام والخضوع للخالق، وهذا التواضع شيء ينبغي أن يظهر على جسد المؤمن. جزء من هدف الحجاب هو منع المؤمنات من عرض أنفسهن، ملابسهن، أجسادهن، ولهذا السبب بالذات يكون الأمر صعباً على من اعتنقن الإسلام اللواتي، مثل عالية، كن يتبعن الأزياء والظهور بـ «مظهر حسن». كما قالت لي صراحة: «أعتقد أنني وجدت الحجاب صعباً حقاً؛ لأنني أحببت ملابسني دائماً! يعود ذلك جزئياً إلى أنني كنت آتي إلى المسجد ثم أعود إلى عائلتي غير المسلمة وأشعر بالخجل قليلاً من الحجاب. عندما وضعته، كنت أشعر بالحر الشديد

دائماً، حتى في أيام البرد القارس، كما لو أن الجميع كانوا ينظرون إلي. ثم انتهى بي الأمر أخيراً بأن أحببته. لكن ذلك لم يحصل مباشرة، وإنما استغرق بعض الوقت».

هكذا، بالنسبة للكثير من الأخوات، كان الحجاب يمثل تحدياً! أنا نفسي وجدته بشعاً عندما رأيته أول مرة قبل سنوات طويلة في مصر. لكن بعد أن جرّبته فعلاً، شعرت أنني أستطيع التعايش معه، وفي النهاية، شعرت بالفخر حقاً لارتدائه. كانت الأثواب الخارجية الأخرى، مثل العباءة والجلباب قصة مختلفة تماماً! كان لدى ياسمين الكثير مما تقوله حول الأثواب والمعاطف التي كان ينبغي ارتداؤها فوق الملابس.

«أنا أسفة، لكنني كنت أعتقد أن العباءة بشعة للغاية. فكّرت فقط، آه يا إلهي، سأبدو مثل جدّة تركية صغيرة! آه لا، لا يمكنني فعل ذلك! أرثدي ملابس محتشمة، وثيابي فضفاضة، لا يمكنك رؤية شكل جسدي، كل هذا الهراء. كانت تلك قضية شائكة. لكن عندما بدأت قراءة ودراسة المزيد، أدركت أن ذلك أقل ما يمكنني فعله في نهاية الأمر. لقد هداني الله إلى الإسلام، وكان ذلك شيئاً مهماً بالنسبة لي. لم أكن لأكشف جسدي في المقام الأول لهذا لم أر سبباً يجعل من ارتداء لباس يستر الجسد للخروج من المنزل قضية شائكة. إن كنت تشعرين بالبرد، فسترتدين معطفاً عند الخروج من المنزل، لهذا لماذا لا يمكنك، في كل مرة تخرجين بها من المنزل، ارتداء معطفك؟».

ينبغي أن نؤكد جميعنا بأن العباءة كانت زياً شائعاً قبل خمس إلى عشر سنوات مضت، وتمثلت في فستان عريض مع بطانة عند الكتفين،

ردنان ضيقان، وأزرار ذهبية كبيرة من الأمام. كانت حقاً الأثواب الوحيدة المتوافرة في المحال الإسلامية في كل أنحاء شرق لندن، وكنت أكرهها. بين نوبات الضحك، أوضحت كليز مشاعرها تجاه تلك العباءات: «يا، إنها بشعة! ترتدينها وتحاولين فعلاً، تحاولين مقاومة رغباتك والتحلي بالورع وتقولين: «لا، هذا ليس سيئاً كما تخيلت»، لكنه في الواقع أسوأ، لهذا الشيء طبقتان أسفل ما يظهر منه هذا مثل ثوب حمل غير مناسب!».

أقسمت إنني لن أرتدي واحدة من تلك العباءات أبداً، ولحسن الحظ، في الوقت الذي أصبحت فيه مستعدة لارتداء ثوب خارجي، كنا قد وجدنا أختاً رائعة من برادفورد تقوم بخياطة عباات أنيقة انسيابية تبدو مثل فساتين عريضة فضفاضة، ودون بطانة مرئية عند الكتفين. كانت رؤية عبااتها، التي كنا ندعوها جلايب حينها، هو ما أقنعني أنه بمقدوري تغطية نفسي أكثر دون أن يبدو شكلي رثاً. لم أكن أشعر بالحاجة لأن أبدو أنيقة، مرتبة (ونصف محتشمة!) وأن أدخل في نزاع مهما كان صغيراً مع إيماني.

بالنسبة لبعض الأخوات اللواتي تكلمت معهن، كان الحجاب أمراً غريباً تماماً بكل بساطة لما كن عليه في ذلك الوقت، والحال التي كن عليها. كما شرحت حليمة لي: «كان الأمر مناقضاً تماماً لما أفعله، لشخصيتي وأسلوب حياتي. كنت في الجامعة، في السنة الثانية، وأكتشف نفسي للتو. كنت قد انتقلت بعيداً عن عائلتي، وأتصرف على سجيتي لهذا كانت مسألة التغطية مناقضة لما كنت عليه. ما شاء الله، بدأت بغطاء الرأس ثم الجسد بأكمله. كان الناس يرونني في المجتمع كما يرونني في الجامعة. تقول بعض الأخوات: «تجمّعنا عند زاوية المسجد وارتدينا كل شيء». حسناً، لا يمكنني فعل ذلك، وهذا نفاق بالنسبة لي، ترونني كما أنا».

تعترف كبير، فتاة رايبوت غزل السابقة، بأن «الحجاب كان صعباً جداً، ومؤملاً بالتأكيد بالنسبة لي. اعتقدت أنني إذا قابلت شخصاً ما، مستشاراً بارعاً حقاً، فسوف يساعدي ذلك. لكن لسوء الحظ، لم أفعل. لهذا ترددت لوقت طويل. عندما بدأت ارتداء حجابي، كانت تلك مرحلة في غاية التقدم: جينز فضفاض، وشاح صغير، شيئاً فشيئاً، والآن، أحب حجابي!».

أدركت في ذلك الوقت شيئاً مهماً: مجتمعنا يعلمنا أن نكون مهووسين بالمظاهر. طالما بقي الشخص جميلاً، رشيقياً، ثرياً، يحب الدعابة أو موهوباً، نكون سعداء لقبوله أو قبولها كما يبدو. لا يتم تعليمنا أبداً أن نبحث - أو نهتم بشأن - عما يقع تحت السطح. لهذا، قد تتدب أمينة سر صديقتي موت الفتاة الممتلئة حيوية التي كانت تعرفها دون أن تفكر حتى بشأن عدم الاستقرار، والغرور، والغطرسة والاضطراب الذي كان أيضاً جزءاً من تلك الفتاة. تبدو هذه النظرة السطحية المضللة أكثر بروزاً بهوس المجتمع بالمشاهير. ليس مهماً الزهو بالنفس، وتضخم الأنا، والخيلاء، والجشع، والسطحية التي قد يكون عليها الشخص «الشهير»، وليس مهماً أن معظم ما نراه ليس أكثر من مجرد علاقات عامة بارعة وصور زائفة بعيدة عن الكمال يتم نشرها لتحسين مركز أهل الشهرة. طالما أنهم يبدوون جميلين ويبتسمون لآلات التصوير، يكون كل شيء بخير والجمهور راضياً. ونحن نهدر وقتنا، نستغرق في أحلام اليقظة، نقرأ حول كل التجهيزات، والجوائز والهدايا الباهظة الثمن التي يتبادلها هؤلاء «الأشخاص الجميلون»، بينما يضحكون بصوت خافت حول أيامهم السيئة. حالات طلاقهم، جرعات المنوعات المفرطة التي يتناولونها وكل دليل آخر يثبت لنا أنهم «مجرد بشر بالمحصلة». ربما لا يستحقون تخصيص مساحة خاصة بهم، لكنهم

على الأقل يجمّلون تلك المساحة! وفي هذا النطاق، لا يمكن للمسلمة أن تنافسهم: بغض النظر عن مدى ذكائها، موهبتها، لطفها، كرمها أو صدقها، فإنها لا «تبدو كما ينبغي»، وهذا شيء لن يغفروه لها أبداً.

اكتشفت سعاد أنها عندما بدأت الالتزام، بدأ وزنها يزداد: «كان ذلك نتيجة لتغير أسلوب حياتي وعدم الشعور بالحاجة لارتداء أجمل الملابس آنذاك. لم يكن هناك صورة ينبغي الحفاظ عليها بعد ذلك». لم تدعها عائلتها تتسى ذلك: «اعتادت عائلتي القول: «منذ بدأت الالتزام، تركت نفسها على سجيبتها. لم تكن العبء مناسبة لها، وكانت هي مناسبة لها...». كل هذا له تأثير سلبي جداً على تقديرها لذاتها وجعلها تشعر بالامتناع نحو حجابها وعباءتها.

لكن بالنسبة لبعضهن، الحجاب ليس مشكلة بحد ذاته، إنما لأنه رمز لهوية معينة، هوية واجهن مشكلة في التوافق معها. بعد أن عدت من غينيا، بقيت أرتدي وشاح الرأس طيلة ستة شهور، شعرت بالراحة فيه: كان يغطي شعري، ويبدو جميلاً (وكان ذلك ما يزال مهماً بالنسبة لي!)، ولم يكن «متشدداً» كثيراً، ويتناسب مع هويتي الأفريقية. تخيلوا المفاجأة التي أصابتنى عندما بدأت أخواتي اللواتي كنت أراهن غالباً في المصلّى يسألنني متى سأبدأ ارتداء «حجاب مناسب»؟ شعرت، بكل صراحة، بالإهانة. من قال: إن رؤيتهن عن الحجاب أفضل من رؤيتي؟ لهذا أعلنت بكل فخر أن تلك هي الطريقة التي نرتدي بها الحجاب في أفريقية، وأنتي لن أفعل أي شيء غير ذلك. ابتسمت الأخوات حينها بشكل يثير الريبة، غير واثقات مما يمكنهن فعله بشأن قوميتي السوداء التي كانت تستحوذ عليّ عندها. لكن بالنسبة لي، كان الحجاب الذي يغطي ما يأمر الله بتغطيته غريباً جداً، خارجاً عن المألوف تماماً، ليس أفريقيّاً أبداً. لم يكن يناسبني.

شعرت كليبر بالشيء نفسه: «لم أكن أريد ارتداء الحجاب ولم أرتدِ الحجاب وقتاً طويلاً، وحاولت إرغام نفسي على البقاء كما كنت من قبل، لكن روعي لم تكن سعيدة بذلك. لكن في الوقت نفسه، لم أستطع الاندماج كلياً في شيء آخر».

قضية الهوية معقدة. كانت «الأنا القديمة» كينونة آمنة معروفة، وكنت مرتاحة معها. كنت أتغير آنذاك وجزء مني يقاوم ذلك التغيير. دخلت في صراع مع نفسي، وتمزقت بين ما أعرف أنه صحيح وما تدعوني رغباتي للقيام به. لم يكن ذلك شيئاً يحدث كل يوم، لعلمكم، فقد كانت معظم الأيام جيدة. لكن كانت هناك أيام سيئة، أيام بدا فيها كل شيء أكثر مما يمكن احتماله، كما لو أن الشيء المثالي الذي كنت أسعى إليه كان صعباً جداً وبعيداً عن متناول يدي.

الأبيات الآتية من الشعر دليل جيد على مشاعري المتناقضة في ذلك الوقت.

«أغمر نفسي بياردات وياردات من وشاح الرأس

أحاول إخفاء ألمي في الظلام.

لا أعرف متى بدأت مشاعر الخواء هذه تتتابني.

ينبغي أن أعترف

بأنه خلال العيد

بدأت مشاعر البهجة تتراجع.

وأجد نفسي الآن أبكي، متشحة بالسواد

أُتضرع لاستعادة بعض مما كان لدي.  
انسوا ما يقوله العلم، العالم مسطح!  
يمكنني رؤيته يمتد أميالاً وأميالاً  
من اللون الرمادي وغياب قاسٍ للابتسامات.  
حتى عندما أكتب، وجهي جامد  
أضحى صعباً مدّهاتين الشفتين هذه الأيام.  
هل هذه، بأي طريقة، جحيم اصطنعتها بنفسي؟  
هل خطئي أنني لم أنته من خبز نظرياتي؟  
أنني لم أضبط المؤقت للسماح لروحي بالشفاء؟  
أنني دفعت نفسي بقسوة كبيرة نحو شيء مثالي مستحيل؟  
هذه بصراحة المشاعر التي تتناوبني  
وحتى معظفي البنفسجي اللامع  
لا يجعل اللمعان  
حقيقة».

لحسن الحظ، كانت الأوقات التي شعرت بها بالإحباط قليلة ومتباعدة؛  
لأنني كنت محظوظة في اعتناق الدين مع سارة، وحنّاً ومجموعتنا المقربة  
من المسلمات حديثاً والعائدات إلى الدين. كان ذلك يعني أن لدينا جميعاً  
قضايا متشابهة تتعلق بما ينتظرنا أمامنا وما تركناه خلفنا. لهذا، على  
العموم، كان لدينا دعم كبير. لم يكن لدى أخوات أخريات، على أي حال،  
مثل شبكة الدعم تلك. كانت بعضهن الوحيديات اللواتي عدن إلى الإيمان

في مجموعة مسلمين بالولادة، مسلمين لم يفهموا آلام حب قديم، النقر على الوتر الحساس وإغراءات الصيف. بالنسبة لهن، كان كفاح التكيف مع هذه الطريقة الجديدة في الحياة سرّاً احتفظن به لأنفسهن. بالنسبة لأخوات أخريات، كانت سرعة التغيير كبيرة جداً: كان هناك الكثير مما ينبغي التخلّي عنه بسرعة كبيرة، والكثير مما ينبغي تطبيقه خلال وقت قصير. كان ذلك هو الموقف الذي وجدت حليلة نفسها فيه.

«عندما دخلت الدين، رأيت كيف تمارس أخوات أخريات الشعائر، وشعرت منذ البداية بأنني أتعرض للكثير من الضغوط. شعرت بأنني لست على ما يرام، لأن كل شيء في تلك الأيام كان يدور حول «لا يمكنك القيام بهذا»، «لا يمكنك القيام بذلك»، «تخلصي من كل ملابسك»... إلخ. لهذا منذ البداية، شعرت بذلك الضغط وكدت أراجع؛ لأنني فكّرت في قرارة نفسي أنني لا أشكك بالدين لكنني أشكك ما إذا كنت أستطيع الالتزام به، وكان ذلك بعد ثلاثة شهور فقط من اعتناقي الإسلام. ثم قالت إحداهن: «لماذا تفعلين ذلك؟ لست مضطرة لذلك». وقلت لنفسني: إنني سأفعل ذلك بأسلوبي. وفعلت ذلك كله... كان علي إيجاد طريقة خاصة بي».

### عقيدة جديدة

الإسلام دين، وطريقة حياة، لأنه بالتحديد أكثر من مجرد دين. لهذا السبب يتضمن نظاماً عقدياً واجتماعياً، واقتصادياً وسياسياً كاملاً. لكن إلى جانب كل التغييرات التي طالت نمط حياتنا عندما اعتنقت أنا وصديقاتي الإسلام، كان هناك أيضاً ثورة طالت نظام معتقداتنا الذي كان ينبغي التفكير به ملياً. بالنسبة لكثيرات ممن كن متدينات من قبل، كانت

تلك مجرد قفزة صغيرة نحو التوحيد، الإيمان بالوحدانية في الإسلام. بالنسبة لأخريات، مثلي، بدا الأمر مثل القفز إلى القمر. بعد أن ضحكت ولهوت في أثناء حضوري صفوف تعليمي الديني في المدرسة بمرور السنين، كان عليّ أن أتكيّف فجأة مع فكرة أن الأنبياء عاشوا فعلاً، وأن القرآن وحي إلهي وكامل، وأنه تم توثيق أحاديث النبي محمد ﷺ وينبغي الالتزام بها.

أتذكر أنني وجدت صعوبة بالغة في قبول فكرة الغيب، غير المرئي، بأكملها على وجه الخصوص، ولم أفكر، لوقت طويل، بشأن الجنّة والنار، والملائكة أو الجن. بدت قفزة الإيمان تلك بعيدة جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت. نظراً لترعرعي في بيئة غير دينية، وجدت أن فكرة مسؤولية الشخص عن أعماله والاستجابة للرب مهيبة تماماً. استطعت من خلال زيادة معرفتي بالبراهين الفكرية والعلمية للقرآن والسنة أن أثق، بشكل منطقي، بأن عالم الغيب للأرواح والملائكة حقيقة. يمثل القرآن، كما قال أحد العلماء في الماضي، البشرية مع براهين منطقية على صدقه وموثوقيته، ويستطيع القارئ، بناء على تلك البراهين، قبول تلك الأشياء التي لا يمكن إثباتها. هكذا كان الأمر بالنسبة لي.

لكن حتى ذلك الوقت كان أكبر اختبار لي ولل كثير من الأخوات قبول جوهر الإسلام (الخشوع). أن تكوني مسلمة معناه أن تخضعي لمشيئة الله. هذا يعني التخلي عن الأنا، والتكبر، والغرور، وإرغام النفس على الطاعة.

كان طريق سارة الطويلة إلى ما أصبحت عليه الآن مليئة بالمقاومة: «كنت أقاوم الخشوع الكامل. كنت سعيدة بالطريقة التي أعيش بها حياتي، لطالما كنت نشيطة، ممتلئة حيوية، أحب الخروج، مشاهدة أفلام بيوت

الفن، زيارة المعارض، الذهاب إلى مطاعم راقية، وكنت أحب ملابسي ... وكان ذلك في معظمه ما أراه والدي لي - أن أكون خبيرة بالحياة، أتكلم لغات مختلفة، أحصل على تعليم جيد، وأتفوق في مجالي - ولأنني كنت أحبه وأحترمه، أردت الارتقاء إلى مستوى توقعاته».

بعد قضاء حياتنا كلها نثور ضد سلطة أو شيء ما، اخترنا الخضوع للسلطة الأعلى على الإطلاق - الله - وكان ذلك مؤملاً أحياناً. كيف يمكن شرح الصراع العنيف الذي ينتابك عندما تتوقن بشدة إلى شيء يؤلم، برغم أنك تعرفين أنه ليس مسموحاً وممنوعاً لأسباب وجيهة؟ يقول الله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

على الرغم من أن هذه الآية تتكلم عن الجهاد الجسدي الذي أمر به النبي ﷺ وصحابته - رضي الله عنهم - ، إلا أنه يصح أيضاً على جهاد النفس، أي الصراع مع الذات والرغبات. هذه أول معركة ينبغي أن يشنها الجميع، المعركة التي يكافح فيها المرء ضد غرائزه وشهواته من أجل شيء أسمى، أسمى وأبقى. لم يقل أحد: إن المعركة ستكون سريعة أو إن الفوز بها سيكون سهلاً، لكنها معركة نواجهها جميعنا. لقد دخلت في كفاح مع نفسي حينها وما زلت كذلك حتى الآن، في كل يوم من حياتي، وسوف أتابع - إن شاء الله - الكفاح حتى أموت.

بالنسبة لكل من يأتي إلى الإسلام من حياة الجاهلية، سواء أكان معتقاً أم عائداً إليه، فهناك لحظات مؤلمة وتضحيات ينبغي القيام بها.

لكن في قلوبنا جميعاً ذكرى أولئك الذين سمعوا رسالة النبي ﷺ واعتنقوا الإسلام أولاً. نتيجة إيمانهم برب واحد في أرض تحكمها عبادة الأوثان والقوانين القبلية التي تبجل الأسلاف، تم تجريد المسلمين من أموالهم، إخراجهم من منازلهم، ضربهم، تعذيبهم وقتلهم، لكنهم لم يتراجعوا عن إيمانهم.

إحدى القصص التي علقت في ذهني كانت عن سمية - رضي الله عنها - إحدى صحابيات النبي ﷺ. بعد أيام من تعذيبها على الرمال الحارقة في الصحراء العربية، لقيت حتفها على يد أبي جهل الذي أغاظه رفضها الارتداد عن الإسلام فطعنها برمح في أعضائها الحساسة. يعدها كل المسلمين أول شهيدة في الإسلام، وتعد شجاعتها وقوة إيمانها مصدر إلهام لنا جميعاً.

والشيء الذي فاجأني وأثار دهشتي هو الإيمان الذي لا يتزعزع لكل واحدة من الأخوات اللواتي تكلمت معهن، واللواتي أكدن أن الأمر كان يستحق كل الألم، الدموع والحزن الذي رافقه، لن تتراجع واحدة منهن عن النطق بالشهادة إذا عدن بالزمن إلى الوراء. إنهن مستعدات لخوض كل التجارب والمحن لتحقيق هدفهن: التشبث بدينهن، الاحتفاظ به قريباً من قلوبهن، وجعل جماله ينفذ إلى حياتهن، أجسادهن وأرواحهن والحصول من ثم على رضا مولاهن ومحبتهم، ورؤية جمال وجهه يوماً ما.